تحية الى بغداد

بقلم : فؤاد الشايب

بغداد !

طال انتظارك يا بغداد ، حتى حسبنا ان الغائب لن يعود، والشهيد لن يستيقظ، والدم الذي سقيت به ورود الحرية، ذهب هدرا في التراب الجاحد . . .

طال ارتقابك ، وترقب فجرك يا بغداد . . حتى قيل انطفأ الفجر ، وانكفأ النور ، واستقر النصل في الصدأ الجامد حتى غدا الفولاذ صدأ كله ، والحديد ترابا كله، فأين بغداد الف وتسعمائة وعشرين في الثورة الاولى على الاحتلال البريطاني ؟ واين بغداد الف وتسعمائة وواحد واربعين في الثورة الثانية على الظلم البريطاني؟

أين الموجات الشعبية الجبارة التي ملأت بغداد ، يوم رشيد عالي ، أين تلك العواصف المزمجرة التي تمردت على الحرب العالمية الثانية ابان احتدامها ، فكادت تحطم موازين الحروب ؟! أين ذاك الطموح الثوري ، الموجه الى الاحتلال والاستعمار في صاروخ من الحقد والانتقام، تهلع لدويه قلوب الرؤوس والاذناب ، ويوصف بالجنون ، تمجيدا له لا تحقيرا وتعظيما لقوته ، لا تصغيرا لشأنه . اين باتت ريح ذلك الجنون العراقي ، الذي يطيح بهامات العقلاء ، والحكماء ، والمخدرين ، والمخدرين ، والضعيفة قلوبهم ، والهزيلة عقولهم ، والمشلولة اذرعهم ، وكل من ولي الامر ، وقبض الاجر ، واستكان للبلهاء والاجراء ، والامراء ، وخبراء الفساد ، ووسطاء الخير ، وانصار التعقل والرزانة والخيانة!

كنا نتساءل : أين المقاومة واين النضال ؟! اين التظاهرات المحمومة التي تسمونها يا اهل بغداد ، (هوسة . .) واين الاهازيج الصارخة بالكلمات المهيجة التي تسمونها ردة ؟!

ماذا جرى لتلاميذي الشباب ، شباب الفتوة في بغداد ، يدفعونني امامهم في هوسة الثورة ، ثورة رشيد عالي وهم يهزجون ويرددون :

واجد نتذلل يا زينا وعالموت ودوك اعرض بينا

كفانا تذللا . . . وادفعوا بنا للموت !!

أين تلك الاصوات المجموعة في كورس من شباب الفتوة المسلحين يبلغون بحماستهم مدارج الافلاك وهم يهزجون :

عيناك وعلى الطوب ركيتي عفت الروح فلا تحكيني

قول لامي لا تبكيني فالموت اولنا وتالينا

وينتفضون مهددين بقبضاتهم مرددين :

يا موت انقذني من الذلة والموت ما نبكي مأجله

ويا قايدنا لسيفك سله وعالموت ودوك اعرض بينا

لقد طال انتظارك وانتظارنا يا بغداد ، حتى حسبنا ان الغائب لن يعود ، والشهيد لن يستيقظ ، والدم الذي ذرفته ارواح المجاهدين ، قد ذهب في الارض الجاحدة ، كدماء الحيوانات في سلخانة المدينة ، هدرا في البلاليع !.

وكنا نتصفح تلك الوجوه السمراء عندما تصبح بيننا في دمشق متسائلين :

وماذا جرى لبغداد . .!! ويكاد يكون الجواب الحزين دائما: نوري السعيد وعبدالاله . .!!

ونتعلق بصديق شنشل ، عندما يهبط دمشق بين الشهور والشهور هاربا من السجن الكبير ، ومفتشا في هذه الربوع عن رجاء يشد به عزيمته ، ويهدهد به لنوازع ثورته ، ونسأله يا مدير الدعاية والاذاعة في ثورة رشيد عالي . . . ! أين العراق . . واين عرب العراق . . هل ترحلوا عن الديار ، فلم يبق فيها سوى الضفادع والغربان ، وطيور النحس ؟! ويتحدث شنشل المناضل المؤمن ، ووراءه سبعة عشر عاما من فترة سوداء ، ازجاها في مقاومة الفجار الطغاة ، هادرا شبابه في معركة اليأس سجينا ، طريدا ، شريدا ، ونفهم من حديثه العنيف ، ومن الشيب في رأسه ، والاسى في قسمات وجهه ، أن جوابه هو جواب الملايين في العراق . . العرش . . . عبدالاله . . . نوري السعيد ؟!

وكانت هذه الاسماء الحادة ، تحز في حلوق الناس وهي تهبط اليها من مسامعهم ، كشيء من شفرات الحلاقة وقطع الزجاج ، فكأنهم لا يعيشون الا ليزدردوا الشوك ، ويغمضوا على القذى، ويناموا على العذاب والذل والهوان؟! فالى اي مدى تستطيع الروح العربية المعذبة في العراق ، ان تمضغ المر ، وتصبر على الضيم ، صبرا طويلا ثقيلا طوله في مدى الزمان سبعة عشر عاما . وهل نفدت في هذه الروح عناصر الطينة العربية ، بل اين في هذه الروح، كرامة الانسان العربي

الذي برأه الله ، منذ وزعه تحت الشمس في صحراوات الشرق ، رائدا حرا ، ابيا ، طموحا مقداما ، وعندما اذن الله فانزل في ارضه ولغته ، قرآنا عربيا مبينا ، رسخت في اعماقه الى الابد ، اعرق صفات الانسان الحر المؤمن ، يحمل الرسالة ويؤدي الامانة ، ويكرم المباديء ، ويعمل اذ يعمل ابتغاء وجه الله والحق ، لا يلوي ولا ينكص ولا يداخله ريب ، ولا يخشى في سبيل الله والحق اثم آثم ، ولا لوم لائم !

... وبغتة يا بغداد ، دوى الرعد ، فانشق حجاب الظلام ، وطاردت الرياح دجنة الغيوم ، فاذ بالدنيا صحو ونور ، واذ بالسماء سماء بغداد ، واذ بالارض ارضها ، والاهل اهلها ، والكل خلق عربي قويم ، لقد حدث ذلك بسهولة من يمسح بكفه لوحا اسود كتبت عليه حروف من تراب وهباء ! وكان الصبر الكبير جديرا بأن يحياه الانسان ليشاهد انفجاره الاكبر .

وفجأة ، يا بغداد ، طرق المخاض بطن الجبل فاهتزت جذوره ونواصيه وخرج البركان من اعماق الارض جبارا رهيبا ، وكان الذين يبنون اعشاشهم واحابيل عناكبهم في فوهة الجبل البركاني اول ضحايا التفجر الساحق ، لان المستهترين الذين يحاولون ان يستروا بمؤخراتهم الغليظة مكامن النار ، هلاكا بها يهلكون . وما اردنا ان نصدق قبل اليوم ، ولن نصدق ابدا بأن الرافعين العرش على قمة البركان يمكن ان يستقر لهم عرش ، والباسطين الحكم بين فكي الاسد ، يمكن ان تنبسط لهم رقعة حكم .

وعندما طالبت الجماهير بجثة الوصي الرجيم ، لتجررها في شوارع العاصمة الظافرة ، لم يكن الوصي ميتا منذ ساعات .. بل هو ميت في حياة الشعب منذ اعوام واعوام . ولم تكن منيته هي التي تأخرت ، بل ان الذي قد تأخر ، هو ظهور الموجة الجارفة التي تستطيع ان تقذف جثث الهالكين من قاع الخضم المحشور الى شاطيء الواقع المنبسط وما الشيء الساقط الذي تداولته نعال الشعب ، في شوارع العاصمة المتمردة ، سوى حثالة روح ، وصورة نفس هالكة قديما . بل الشيء الذي صنعته كف الثورة ، انها اخرجت الجثة البالية من القصر الملكي ، وفتحت نوافذه للشمس !!

ولا اذكرك يا فيصل ... لان الثورة لم تذكرك في وقائع الرابع عشر من تموز ، سوى انك شبح ملك ، اراده الشعب ذات يوم ملكا عربيا ، فلم يكن سوى هامة للتاج الانكليزي في ارض العرب . واما الذي صنعته الثورة فهو انها اطلقت سراحك حرا ... حرا من قبضة الخيانة ، وتجار الرقيق ... الذين ارادوا ن يعدوا من شيئك الهزيل رأس رمح يمزقون به وحدة العرب ، وحرية العرب . وكفى الثورة بتحريرك من حياة العبيد احسانا لنفسك ... ولشعبك !

وفي جارف العاصفة المقدسة يا بغداد ، طفر نوري السعيد من وكر الثعالب هاربا الى النجاة وليس في جراب عمره المهتريء سوى بضعة اعوام عجفاء ، يقرع بعضها بعضا كقشور جوزات فارغة !! ماذا عساه ان يفعل العجوز المرذول ، بهذه القشور التافهة في جراب البقية من حياته ؟! واين يهرب بها .. ولماذا يحاول الهرب ؟! يقيننا ان الذي دفع به الى النجاة ليس حب الحياة لزاما .. انه اشد من عرفته الحياة عدوا لها وعدوا لنفسه . بل انه قد هرب بدافع حب الحكم وشهوة الانتقام من شعب العراق وشهوة التسلط على العرب بحراب الانكليز فغدت شهواته مع الادمان الحقير عقيدة ومبدأ وديانة . ولو انه ترك العراق وراءه حجرا على حجر .. وخرابا على خراب ، ونجا بنفسه الحقيرة لصاح من أي مزبلة في جوار العاصمة البريطانية : انا حاكم العراق الشرعي .. !! انا رئيس الوزراء الدستوري!

في سبيل تلك الشهوة الاثيمة ، كان غداة الثورة المطهرة ، يزحف على بطنه الى النجاة ، بثياب امرأة ، وعيون الشعب ترقب منافذ الوحش الذي رصدت الثورة عشرة الاف دينار ثمنا لرأسه .. وليس رأسه يساوي فلسا واحدا من دينار واحد . ولو طلب تسليم رأسه بفلس .. لكان المتزاحمون عليه كثيرين ... لالان الفلس المقبوض لقاء رأس الخائن ... هو اثمن من عشرة الاف ومئة الف !! ولان العراق ربح بسقوط رأس الخيانة ، كنوزا من الذهب لا تحصى بالاعداد والارقام .

هب العجوز الموهون ، وعصى الشعب وراءه ، كما تقرع العصا وراء الكلاب الشاردة وكان متنكرا بزي امرأة ... فقيل جبان ..!! وحاشا المرأة العربية في العراق ان يقال لمن لبس زيها انه كالمرأة جبان .. فالمرأة في العراق ، بنت رجال واخت رجال ، ولم تكن يوم تموز العظيم في زي المخدرات ، بل كان ارجوان الثورة على كتفيها وشاحا ... وكانت اجمل ما تكون النساء عندما خلعت القيد ، لتجعل منه خلخالا تطرب لرناته الارض الحرة كلما خطت فوقها خطوات زهو وخيلاء !

هذه هي المرأة العربية في ارض العراق . أما المرأة الفجرية نوري السعيد ، فلم تكن من النساء سوى من جواري الزمان ، شوهدت في سوق دولية من اسواق النخاسة ، فابتاعها القراصنة في نزولهم من مراكب الغزو ، وراحوا يتداولونها حاكما عن حاكم ، ومندوبا عن مندوب وفاسقا اثر فاسق ، حتى ارتفعت بمعاقرة الفحشاء الى اسمى مراتب القداسة الاستعمارية .

هلك نوري السعيد ، وانبقر بطن التنين تحت نعال الشعب ، ولو قدر له ان يعيش كما عاش بعض تلامذته الذين هربوا من نقمة الشعب ، ولجأوا الى الجيش طالبين الحماية لكان اعدل حكم يحلى به ان يزج في قفص ، كما يزج القرويون بعض الضباع الكاسرة التي يأسرونها ويهبطون بها الى المدينة ،

ليعرضوها للفرجة : هذا هو الضبع الزعيم ، الجنرال ، السير نوري باشا السعيد ، الموسوم في جبينه بلعنة الخيانة ، والحامل بلا شرف وسام ربطة الساق !!

*

واخيرا ها هي الثورة .. وهذا هو وجه العراق الصحيح من خلال الثورة . واخيرا هذا هو الجلاء ، وهذه هي الحرية الناصعة من خلال الجلاء ، واخيرا هذا هو الاستقلال . واخيرا هذا هو العراق الذي حجبه عنا الغاصبون والمستعمرون ، صنوا طبيعيا للجمهورية العربية المتحدة ، وجزءا متمما من اهم اجزاء الوطن العربي الاكبر .

هذا هو العراق القوى بالثورة المظفرة ، تهتز لمولده الجديد اعطاف الارض ، وتضطرب ارجاء الامبراطوريات وتنتهك للعيان استار الخدعة الغربية في بلاد الشرق ، فاذ ببريطانيا ليست وحدها وراء حلف بغداد ، بل كانت امريكا ابدا وراء قناع الحلف الرجيم . واذ بالمذعورين المصعوقين يفتشون عن اسم جديد لحلف بغداد ، فلا يجدون سوى الحرب السافرة والعداء الحاقد ، بديلا ، ولن يجدوا سوى الشيطان حليفا ، ولن تقترن بعد اليوم اجمل الاسماء ، باقبح المسميات .

بغداد ، اسم لعاصمة الرشيد ، بغداد اسم لعهد العرب الزاهر ، بغداد اسم لمجد العرب التليد ، بغداد اسم لاخلد عصور العرب في العلم والعرفان ، والنور والتسامح والمدنية الوارفة الظلال . بغداد اسم لثورات العرب الحديثة في العراق ضد احتلال المستعمر وغطرسة الفاتح . ولن تستطيع الاصابع الملوثة بعد اليوم ان تكتب فوق بغداد اسما مضافا تضاف اليه، لان الاسم الكبير الذي يتحدر منه ينبوع تاريخ جديد للقومية العربية المنتصرة هو ثورة بغداد ... واما (حلف بغداد) فقد مضى الى جهنم وبئس المصير فليبحث المزورون عن اسم غير اسم بغداد ، يلصقون عليه رقعة اعلانية عن خططهم الاستعمارية .

هذا هو العراق الجديد ، وهذه هي احدى معجزات العرب فيما اطلق عليه الرئيس جمال عبد الناصر اطلاقا معبرا : (بالزحف المقدس) .

ففي عام ١٩٤٦ كان الجلاء عن دمشق معجزة الزمان ، لانه جلاء جذري ، رفع الاحتلال ونفوذ الاجنبي عن كاهل الجزء السوري رفعا كاملا ناجزا هو الاول من نوعه في تاريخ كفاح العرب .. وتمت ثورة القاهرة عام ١٩٥٢ فكانت معجزة قومية رائعة اذهلت عيون الزمان وقلبت مفاهيم الحكم في ارجاء الشرق الكبير . وتمت بثورة القاهرة معجزة بور سعيد ، فسكر الاستعمار من هول اللطمة تسددها كف صغيرة ... وكان لا يزال مأخوذا على نفسه في دوار الهزيمة النكراء ، عندما انطلقت ثورة بغداد ، فترنح لها الكون ، ومادت اركان الاستعمار وهي تهوي الى القاع السحيق .. !! فلا تعجبني يا بغداد ان تنادت اليك اصوات البرية من ابعد الاقطار ، واقصى المحيطات مهولة مدوية مباركة ولاعنة، فأن ثورتك المظفرة المصبوبة كالتماثيل الرائعة في قالب النجاح .. هكذا .. بضربة واحدة ، من ازميل المهندس البناء ، هي بالواقع معجزة معجزات العرب في تاريخهم العظيم ! وسيستمر الزحف المقدس بمواكبه الساحقة .. محملا باضخم المعجزات .. وسترى تلك الجماجم الصغيرة المدوخة في خضم الاندفاق ان الموجة العربية الصاعدة ، ستجرف عما قريب كل شيء تافه وحقير وزنيم . وانه لباستطاعة الاسطول الامريكي والجيش البريطاني ، ان يحتلا بيروت وعمان ، وان يثيرا حربا تدمر الكون ، وتقلب احشاء الارض .. ولكن ليس باستطاعة العلم والقوة ، والاختراع ، والجحافل المدججة ، وكل ما في خزائن الذكاء السياسي من كيمياء وسحر ، ان تعطي شيئا من قيمة الحياة ، للجماجم الصغيرة النخرة ، التي تجرفها الموجة العربية الصاعدة ، جماجم الخونة والاجراء . ان الممالك الممالك العربية لن يستقيم امرها للممالك، والرئاسات العربية لن تدوم للذين رؤوسهم بين اقدامهم ، وتحت اقدام فرق الاطفاء في المعركة اللاهبة ! وعجبا لامريكا تلبس مسوح القداسة والولاية ، وتزعم لنفسها القدرة على انقاذ ارواح الهالكين ... بل لا عجب .. فهذا هو عصر المسيح الكذاب ... وعصر المسيح الكذاب ، كما تقول قصص الشعب هو عصر القيامة، عصر النهاية، نهاية عهد الظلم والفسق والفجور في العالم .

الا بوركت يمينك يا بغداد !!

لقد كانت ثورتك المظفرة ، تفجيرا للطاقة العربية في ارض العراق ، وتحقيقا لامل العرب في اهل العراق ، وكانت قبل ذلك وفوق كل شيء ، ضربة انتقام لثورة العرب عام ١٩١٧ التي اراد مزورو التاريخ ان يكتبوا لنا بأنها الثورة العربية الاولى والاخيرة .

لقد كانت ثورة ارادها الشعب حقا .. ولكن الثائرين في تلك الايام ، اكلوا الثورة كما تأكل القطط الجائعة صغارها في دور الرضاع . لقد كانت ثورة حق ثورة ١٩١٧ ولكن الثوار ما لبثوا ان انطرحوا تحت مائدة الظافرين ، ليلتقطوا الفتائت الهزيلة من المائدة العامرة . لقد كانت ثورة ... تلك الثورة ... ولكن الثوار رفعوا على نارها قدر مصالحهم واطماعهم ، ليأكلوا من جسد الامة العربية الممزق ، وليشربوا من دماء الثوار الاحرار . في تلك الثورة المهدورة انقلب الملوك الى مماليك . والامراء الى مأمورين ، والسياسيون الى عبيد مأجورين .. وظلوا يتيهون علينا بالثورة الكبرى ... ويحدثوننا عن الرصاصة الاولى ، ويخدعوننا بالتاريخ القبيح المزور الذي نشأ في مجموعة اختلاطاته المتفسخة .. نوري السعيد وامثاله من الوالغين بدم الثورة !! فصحح وقائع التاريخ يا جابر العمر !!

ولقد كان من حق التاريخ على بغداد ، ان تكون يمينها المباركة تلك اليمين التي تنتقم للعرب من ثورة اكلها ثوارها، ورصاصة صوبوها الى صدر امة العرب .

فهذه هي الثورة الحقة .. ثورة الرابع عشر من تموز .. الا بوركت يمينك يا بغداد !! بوركت يمينك يا بغداد !

دمشق — فؤاد الشايب